

## التمييز بين الفكر الصوفي والمنظور العلمي

## Discrimination between Sufi thought and scientific perspective

شرفاوي قويدر<sup>1</sup>، أ.د قيلامين صباح<sup>2</sup><sup>1</sup>مخبر التربية والابستمولوجيا<sup>1</sup> المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)، khalilcher71@gmail.com<sup>2</sup> جامعة خميس مليانة (الجزائر)، sabahguelamine@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/02/20 تاريخ القبول: 2024/02/25 تاريخ النشر: 2024/03/03

ملخص: يهدف هذا البحث إلى تخلص الميتافيزيقا من اتهامات العلم الحديث لها، ووصفها باللاواقعية و الخرافة، وأن موضوعها خال من المحتوى، وكان الدفاع عنها من طرف الفلاسفة العقلانيين و في مقدمتهم إيمانويل كانط، كما أنصفتها الفيزياء المعاصرة، فيزياء الكوانتم و النسبية، التي أدت نتائجها إلى بعث الجانب الروحي في الإنسان و إعادة الحديث عن الألوهية و وحدة الوجود، التي تناولها الفكر الصوفي الشرقي و الإسلامي. وقد أدى هذا إلى اكتشاف مقاربات بين ما وصلت إليه الفيزياء الحديثة، ومنقولات الفكر الصوفي القديم، و عاد التفكير العقلاني إلى دوره الذي جمده الفيزياء الكلاسيكية، وأصبح الاهتمام بالحياة النفسية و الروحية للإنسان في مقدمة البحوث العلمية، و تجلى ذلك بظهور علم النفس التحليلي و الباراسيكولوجي، حيث صار بالإمكان دراسة الأحوال و الظواهر النفسية دراسة علمية تمكن من ضبط السلوك و العلاج النفسي إلى حد ما.

كلمات مفتاحية: الميتافيزيقا، الفكر الصوفي ، فيزياء الكوانتم ، العقلانية ، الإستمولوجيا.

**Abstract:** This research aims to rid metaphysics of the accusations of modern science, describing it as unrealistic and superstitious, and that its subject is devoid of content.

It was defended by rational philosophers, led by Immanuel Kant, and contemporary physics, quantum physics and relativity, whose results led to the resurrection of the spiritual side in man, and re-talking about divinity and unity of existence, which were dealt with in Eastern and Islamic mystical thought.

This led to the discovery of approximations between what modern physics had reached and the traditions of ancient Sufi thought, and rational thinking returned to its role that classical physics had frozen, and interest in the psychological and spiritual life of man became at the forefront of scientific research, and this was evident in the emergence of analytical psychology and parapsychology.

Where young people can study psychological conditions and phenomena in a scientific study that enables controlling behavior and psychotrapy to some extent .

**Keywords:** metaphysics, Sufi thought, quantum physics, rational thinking, Epistemology.

المؤلف المرسل: شرفاوي قويدر

## 1. مقدمة

إن كلمة ميتافيزياء تعني في الفلسفة اليونانية ما يأتي بعد الفيزياء و يعود أصل هذه التسمية إلى كتاب أرسطو الذي عنون بالميتافيزياء ، فقد وجد بلا عنوان. و تعني الميتافيزياء تلك المواضيع الواقفة فيما وراء الفيزياء ، و تطور اسمها فيما بعد إلى ما وراء العلم، و هكذا فإن الميتافيزياء تعني دراسة مواضيع حول العلم بصفة عامة، فقد تضمنت المسائل الميتافيزيائية أصل الكون و طبيعته و غايته، و كيف أن عالم الظواهر المائل أمام حواسنا يتعلق بحقيقته الضمنية ، و بنظامه، و بالعلاقة بين العقل و المادة، و بوجود حرية الإرادة.

و قد لاقى هذا المشروع الميتافيزيائي معارضة حادة في القرن السابع عشر بعد التطور الكبير الذي شهده العالم ، و سيطرة النظرة المادية على العالم الطبيعي،

## التمييز بين الفكر الصوفي والمنظور العلمي

واعتبار الكون مجرد آلة قوامها من ذاتها، لا تحتاج إلى عناية خارجية أو تفسير ديني، وهذا ما دفع بالفكر العلمي إلى إنكار الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة، فهل استطاع العلم فعلا إنكار الميتافيزيقا و التفسيرات العقلية و الغيبية ، و إعلان موت الإله؟

في هذا البحث تمت الإشارة إلى هذا الحوار و المقابلة بين العلم الحديث بمذهبه الحسي و منهجه التجريبي من جهة، و بين عقلانية الفلسفة و الميتافيزيقا ، و روحانية الفكر الصوفي و الديني، من جهة أخرى.

و لقد اقتضت طبيعة هذا البحث اعتماد منهج تاريخي مقارن، نصل من خلاله إلى المقاربات الموجودة بين هذه الاتجاهات ، غير أن التعقيد الموجود في طبيعة هذه الموضوعات ، فرض علينا اتباع الطرق التحليلية لتذليل الصعوبات ، و لا بد أن يكون المنهج الجدلي حاضرا في أي بحث فلسفي، لأن ذلك من طبيعته عندما تصادفنا مواقف متعارضة.

و كان هدفنا من هذا كله أن نعيد للفلسفة و الميتافيزيقا و الدين حضورهم و قيمتهم التي كادت أن تقضي عليها الفيزياء الكلاسيكية بمنهجها الصارم و نظرتها الحسية الخالصة.

**2. الميتافيزيقا و الأسطورة** قد يتبادر لبعض الأذهان أن الميتافيزيقا هي الأسطورة، مبررين ذلك أن كلا منهما يتحدث عن أشياء سامية و غير عادية، تخالف الواقع، لكن الأسطورة ليست بنية ميتافيزيقية، الميتافيزيقا هي دراسة طبيعية لعالم ما بعد الطبيعة، أي للعالم الخفي وراء العالم الظاهر، و الذي قد يكون حاضرا ضمن هذا الأخير، و هنا تظهر وظيفة أخرى للميتافيزيقا، في محاولتها الربط بين عالين كبيرين، هما العالم الطبيعي المحسوس و العالم الذي تعجز عنه الحواس، و المتواجد حولنا، أي الربط بين الإنسان و ما هو غائب عن وجوده، و يود الإنسان في المقابل أن يكون حاضرا مع البعد الغائب عن إطاره الأنطولوجي المعلوم بالنسبة إليه، و الذي يشكل جزءا من حقيقية أنطولوجية كبرى تمثل حقيقة وجودية ترتبط بالعالم الأول. بينما الأسطورة تعبر عن

## شرفاوي قويدر، أ.د قيلامين صباح

الخيال و اللاواقعية و الخرافة التي تمتزج بشيء من الواقع، أما الميتافيزيقا فهي بحث عن الحقيقة الغائبة، لكنها واقعية، تختبئ في عالم لا تظهره الطبيعة الحسية.

إن تعالي الميتافيزيقا عن رصد الحواس يجعلها في قفص الاتهام الذي يحيلها إلى نفي العلاقة بينها و بين المعرفة الإنسانية، و خاصة العلمية التجريبية منها، فالقضايا الميتافيزيقية تنزع إلى التجريد بعيدا عن الملابس الحسية. و هذا ما جعل بعض الاتجاهات الفلسفية تنادي برفضها و تدميرها. و تطهير الفلسفة و العلم منها، رغم أن العديد من الفلسفات و العلوم التي تتخذ من التجربة معيارا لها، تعتمد على بعض المفاهيم الميتافيزيقية، مثل مفهوم الزمان و المكان..... فالميتافيزيقا إذن ليست تجاوزا للواقع أو ابتعادا عنه، بل هي التعمق في ذلك الواقع و الكشف عما يخفيه من حقائق وراء ظاهر حسي مقنع، من شأنه أن يخدعنا، حقائق ترتقي بالمعرفة من إطارها الحسي إلى إطار أرق و أعظم، هو الإطار الخالص و المجرد. فالهدف منها فلسفي و علمي في نهاية المطاف، و هو بلوغ اليقين الذي لم يكن يوما من نصيبها، بل تكتفي بوضع أطروحات و فرضيات تعتبر كمبادئ يعتمد عليها الفكر الإنساني لإتمام بحوثه التي لا تنتهي.

**3. من العقلانية اليونانية إلى المادية الحديثة** لقد أدرك فلاسفة اليونان القدماء أن النظام و الانسجام في العالم لم يتطلب تفسيرا، فهذه الصفات لا تأتي إلا من خالق يعمل حسب خطة مسبقة ، و في القرن الثالث عشر عرض الإكويني رأيه بأن الأجسام الطبيعية تعمل كما لو أنها موجهة نحو هدف محدد أو غاية ما، إن هذه الملاءمة بين الوسائل و الغايات تعني أن هناك قصدا ، و لكن عدم توفر الوعي لهذه الأجسام الطبيعية جعلها لا تستطيع التعبير عن هذا القصد من تلقاء نفسها، و لذلك لا بد من وجود كائن عاقل يوجه كل الأشياء الطبيعية إلى غايتها، و هذا الكائن هو ما ندعوه الله. (بول ديفيز، 2008، ص28)

و بحسب التقليد المسيحي فإن التفسير الأعمق هو أن الله صمم الطبيعة بمهارة و إبداع خارقين، و إن مشروع فيزياء الجسيمات يكشف جزءا من هذا التصميم ، و إذا

## التمييز بين الفكر الصوفي والمنظور العلمي

كان للمرء أن يقبل هذا فسيواجه السؤال التالي "لأي هدف صنع الله هذا التصميم" و للإجابة على هذا السؤال يجب أن نأخذ بعين الاعتبار عدة اتفاقات، فهذا التوليف الظاهر لقوانين الطبيعة و اللازم لتطور حياة واعية في العالم يحمل إحياء واضحا بأن الإله صمم العالم بحيث يسمح لمثل هذه الحياة و لهذا الوعي أن يظهر، و يعني هذا أن وجودنا في الكون شكل عنصرا مركزيا في خطة الإله.

إن الاعتقاد بأنه من الممكن معرفة طبيعة الأشياء في العالم عن طريق العقل وحده و ذلك باستخدام نقاش استنتاجي منطقي هو اعتقاد ذو تاريخ طويل يعود إلى كتابات أرسطو و أفلاطون ، و قد عادت هذه الفكرة إلى الظهور في القرن السابع عشر مع الفلاسفة العقليين مثل ديكارت الذي أسس نظاما للفيزياء قصد منه أن تكون جذوره في العقل وحده بدلا من الملاحظة التجريبية الحسية ، و منه ظهرت فكرة قابلية الوصف الموحد الكلي للفيزياء بالبرهان و الاستنتاج فقط.

غير أن هذا الاتجاه المسيحي للإكوييني انهار على أعتاب ميكانيكا نيوتن في القرن السابع عشر، و التي ترى أن حركة الأجسام المادية تقوم على أساس مبدأ العطالة، و القوى، دون الحاجة إلى إشراف إلهي ، فلم يعد للغائية و القصد مجال في هذا العلم الجديد.

كما لاقى هذا المشروع الميتافيزيائي معارضة حادة في القرن التاسع عشر تبناها كل من إيمانويل كانط و ديفيد هيوم ، حيث أبديا ارتياهما حول هذا المشروع و ألقيا عليه ظلالا من الشك عن طريق النقد الذي اتسمت به فلسفتهم ، فحسب هيوم لا توجد معرفة في الذهن إلا التي تأتي عن طريق الحواس ، فرفض المسائل المتعلقة بغاية الكون أو معناه أو مكانة الجنس البشري فيه، و عرف هذا الموقف الفلسفي لديفيد هيوم بالمذهب الحسي التجريبي، لأنه يتعامل مع حقائق التجربة، على اعتبار أنها الأساس الذي يقوم عليه كل ما يمكن أن نعرفه.

## شرفاوي قويدر، أ.د قيلامين صباح

أما كانط فيرى أن كل معرفة تبدأ مع تجربتنا بالعالم ، غير أنه كان يعتقد أن الكائنات البشرية تمتلك قوالب ذهنية فطرية (إنية) لا بد منها لكل فكر كي يتحقق، فالتفكير إذن يعتمد على عمليتين متسايرتين هما المعطيات الحسية و المعرفة القبلية، و هذا ما يحدد قدرة الكائنات البشرية فيما يمكن أن تعرفه. و كان نقده للميتافيزياء يتمثل في أن تفكيرنا يمكن أن ينطبق فقط في مجال التجربة و لا يستطيع أن يتجاوز ذلك إلى المجالات الافتراضية الكامنة وراء عالم الظواهر الفعلية، و بتعبير آخر يمكننا تطبيق تفكيرنا على الأشياء كما نراها ، و لا يمكننا معرفة الأشياء في ذاتها ، و كل محاولة لوضع إطار نظري حول الواقع الكامن وراء أغراض التجربة هي محاولة محكوم عليها بالفشل. (بول ديفيز، 2008، ص28)

تعد هذه أكبر حملة شرسة على التنظير الفيزيائي صرفت النظر عنه في العصر الحديث، أيدتها في ذلك الاتجاهات العلمية الحديثة متمثلة في الفيزياء الكلاسيكية، التي نتجت عنها النظرة الآلية للعالم، و طغيان الفكر المادي.

غير أن فئة من العلماء و الفلاسفة رفضت التخلي عن التأملات حول ما هو كائن فعلا خلف المظاهر السطحية للعالم المادي، و قد تدعم هذا الاتجاه بظهور بعض الانجازات في الفيزياء الأساسية و الكوسمولوجية و نظرية الحوسسة، فقد أعادت دراسة الذكاء الاصطناعي فتح الحوار حول حرية الإرادة ، و مشكلة العلاقة بين العقل والجسد، و أحييت نظرية الانفجار العظيم التأمل حول الحاجة إلى آلية تأتي بالعالم الفيزيائي إلى الوجود قبل كل شيء. و أظهرت ميكانيكا الكم الطريقة المرهفة التي يشترك فيها الراصد مع المرصود ، و كشفت نظرية الشواش على أن العلاقة بين الثبات و التغيير كانت بعيدة عن البساطة.

لقد أصبح التعبير ميتافيزياء يعني نظريات حول نظريات الفيزياء و أصبح فجأة ذا مكانة محترمة ، لأنه بدأ يناقش أصنافا من القوانين بدل من قوانين عالمنا الراهنة، كما وجه الاهتمام إلى عوالم افتراضية تختلف خواصها كل الاختلاف عن عالمنا، و ذلك

## التمييز بين الفكر الصوفي والمنظور العلمي

لمعرفة إن كان ثمة شيء مميز قد خص به عالمنا. و قد فكر بعض المنظرين بوجود قوانين حول القوانين تقوم بعملية اصطفاء قوانين عالمنا من مجموعة أوسع، حتى أن عددا منهم كان مستعدا لأن ينظر في إمكان وجود حقيقي لعوالم أخرى ذات قوانين مختلفة عن قوانين عالمنا.

ليس أمام الإنسان ليصل إلى حقيقة هذا العالم إلا أن يبتعد عن المادي و الفيزيائي إلى مملكة التصوف و التجريد ، ثمة مفاهيم مثل ، منطق، عدد، إله، تتكرر عبر التاريخ باعتبارها أرضا راسخة يبني عليها الإنسان صورة واقع يكون لديه فيها أمل ما بحقيقة موثوقة دائمة ، و لكن مفارقة الوجود القبيحة تنتصب عندئذ أمامنا . فإلى أي مدى يمكن أن يمد عالم التجربة المتغير جذوره في عالم لا يتغير من المفاهيم المجردة.

تغيرت النظرة العامة حول موضوع الإنسان في الكون تغيرا جذريا فالمفاهيم والقوانين الأساسية هي من خلق العقل الإنساني، حيث لا يمكن كما ترى النسبية فصل المشاهد عن موضوع المشاهدة، او العقل عن موضوعه، وتعتبر هذه نظرة مثالية من النظرية النسبية تجاوزت بها النظرة المثالية للعالم.

و أضافت النظرية الكوانتية مسمارا في نعش الفلسفة المادية من خلال نفي المادة عن الجسيمات الأولية، حيث أن العالم المادي ليس كما يبدو لحواسنا بل هو عالم من صيغ رياضية مجردة . فالباحث العلمي هو الذي يتدخل فيه بقدراته العقلية و آلاته القياسية. و بذلك نفت الكوانتية الموضوعية عن المعرفة العلمية و عن العالم المادي.

كما أدى مبدأ الاحتمية لهيزنبرغ وهي فكرة متأصلة في الطبيعة حسب نظريته، أدى ذلك إلى الإيمان بفكرة العشوائية، و القوانين الإحصائية ، وإلغاء مبدأ الميكانيكا الكلاسيكية في العالم الميكروسكوبي، مدعما رأيه مما يحدث للإلكترون أثناء حركته من مدار إلى آخر، وهو ما فتح المجال لبعض التفسيرات الميتافيزيقية والروحانية.

إن ظهور نظرية الأوتار الفائقة الناجمة عن توحيد جميع القوى الطبيعية والتي تعتمد على بعض المصادفات السحرية و العجائبية وعلى الرياضيات المعقدة

## شرفاوي قويدر، أ.د قيلامين صباح

،والاستنباط العقلي و الاتساق المنطقي ، و التجارب الخيالية البعيدة عن التحقق التجريبي المادي ،وصلت بذلك إلى حلول لانهائية أربكت الفيزيائيين في الوصول إلى نتائج موحدة وخاضعة للاختبار ، مما جعلها أقرب إلى الفلسفة منها إلى العلم ، فالفيزياء المعاصرة بشكل عام هي إبحار في عالم الخيال العلمي الافتراضي ، و بذلك أصبح التفسير الميتافيزيقي توسيعا للتفسير العلمي، و المنهج الميتافيزيقي تطورا للمنهج العلمي .

كما نجد الجذور الميتافيزيقية للعلوم الطبيعية في عملية تحليل ونقد المفاهيم والفروض المسبقة، و الدعائم التي تستند إليها العلوم ، كما ترتبط أيضا بثمين و تقويم الادعاءات التي تشاركها العلوم بالدراسة ، و على ذلك فإن الميتافيزياء لها طابع معياري ووضعي أيضا ، ولا يتوقف دور الميتافيزياء عند هذا الحد. فهي تبحث في الأسس الأولية والنتائج النهائية لطبيعة و وجود موضوعات كل العلوم الجزئية التي تدخل في دائرة اهتمامها، فهي ذات تصحيحية أيضا، فلا يمكن للعلوم أن تقوم بدونها. ولذا يمكن أن نقول أن الميتافيزياء هي تفسير التفكير، إنها علم من نوع ثاني، أو نوع أعلى من حيث الدرجة، و باختصار فالميتافيزياء هي ما وراء العلم، فلا يمكن فصل الأسئلة و الافتراضات الميتافيزيائية عن الاعتبارات الاستيمولوجية ، حيث أن العالم الذي ينبغي أن يكون، لا يمكن أن يكون كذلك من غير تحديد جوانبه مسبقا، مما يعني أن ما هو أولي إستيمولوجيا هو أولي ميتافيزيائيا.

و نحن الآن في زمن التطور العلمي و التكنولوجي ، لم تعد الميتافيزيقا غائبة كما يتصورها البعض و لم تتلاشى ، رغم سلسلة الهجمات العنيفة التي لا تزال الكثير من الفلاسفات تشنها عليها، بل على العكس من ذلك فقد اتسع مجال بحثها. فبعد أن كانت أسئلتها انطولوجية تتعلق بالوجود فقط ، أصبحت بعد ظهور الإستيمولوجيا مرتبطة بها ، و اتخذتها مبحثا من مباحثها (إمام عبد الفتاح، 2005، ص). فالأسئلة التي طرحها الفلاسفة حول مصادر المعرفة و امكانياتها، و عما إذا كانت هناك حواس أخرى يمتلكها

## التمييز بين الفكر الصوفي والمنظور العلمي

الإنسان ، هي أسئلة ابستمولوجية ذات أساس ميتافيزيقي بالدرجة الأولى. و من المؤكد أن سبب تطور الميتافيزيقا راجع إلى مدى تطور الوعي البشري، و على العموم فإن الميتافيزيقا ظلت طوال تاريخها تهتم بمواضيع ثابتة معها إلى حد الساعة ، مثل الوجود الإلهي ، و الزمان و المكان، و السببية و العدم، و الجوهر و الحقيقة...

و يمكن أن نصل من خلال هذا الكلام إلى أن تطور العلم لم يكن أبدا سببا في تخلي الفكر البشري عن التفسيرات الميتافيزيقية، و لم يؤد ظهور الابستمولوجيا إلى تلاشها، بل على العكس من ذلك ، فلقد اتسع مجال الاشتغال الميتافيزيقي، و توسعت جغرافية الميتافيزيقا في ساحة الفكر الفلسفي على وجه الخصوص.

### 4. التفكير الإنساني تفكير ميتافيزيقي

تهتم الميتافيزيقا بقضايا التفكير الإنساني في مجالات الانطولوجيا والابستمولوجيا ، و الميثولوجيا ، و الكوسمولوجيا، بل لأنها ترتبط حتى بمجالات حياتنا اليومية من خلال المقولات التي نستعملها في معاملاتنا البسيطة مثل المكان و الزمان والله و الدين و الموروث الثقافي. فهل يعني هذا أن الميتافيزيقا تتواجد بقوة في حياتنا اليومية البسيطة بعيدا عن المجالات المعرفية و ميادين الدراسات الأكاديمية والجامعية؟

وهل يتغلغل التفكير الميتافيزيقي لدى أوساط العامة، أم يبقى حكرا على

الفيلسوف المحترف الذي يعيش بميتافيزيقاه بعيدا عن غيره من الناس؟

يعتقد ادوارد تايلور أن المشكلات الميتافيزيقية تظهر في حال ما ظهر التناقض في ذهن الإنسان، فإذا ما أوقعته خبراته اليومية في التناقض ، يبدأ يبحث ذهنيا عما هو حقيقي وراء ما يبدو أنه حقيقي في الظاهر، جراء ذلك الشعور. وهذا الشعور بالتناقض يدفع إلى الغوص أكثر في الواقع بدل النفور منه، بحثا عن الحقيقة الخفية، لقد كانت الميتافيزيقا تعبيراً عن حاجة ألح عليها العقل البشري - كما يرى كانط - وكان النقد الذي تمت ممارسته على المعرفة الظاهرة بوابة للدخول في عالم الميتافيزيقا، فالنقد وظيفته

## شرفاوي قويدر، أ.د قيلامين صباح

فحص ما يبدو على أنه حقيقة ظاهرة ، بمحاولة الكشف عما وراءها ، وهذا لب الميتافيزيقا، فوظيفتها نقدية تسلط الضوء على الواقع لمسح الغبار عنه ، واستجلاء الحقيقة الكامنة فيه، و هو ما يفعله العقل، و هو ما أطلق عليه كانط الميتافيزيقا العقلية التي لا تريد إشباع ما يدور داخل الذهن من استفزازات عقلية بالأوهام، بل بالنقد الهادف إلى تحصيل الحقيقة المقاربة للكمال. ومادام العقل خاصية إنسانية وظيفتها النقد ، و أن هذه الوظيفة يمكن أن تأخذ بعدا ميتافيزيقيا ، فإن الميتافيزيقا كتفكير هي نشاط عقلي ، وهذا يعني أنها مرتبطة بالإنسان بشدة ، ومادام الإنسان ينقد فهو يمارس نشاطا ميتافيزيقيا ، هدفه نقد الحقيقة للوصول إلى حقيقة أكثر سطوعا ونورا.

و كان ديكارت قبل ذلك قد وجه نقده للتفكير البشري من خلال الشك في كل شيء ، فقد شك حتى في مبادئ العلوم و الأحكام القبلية التي كانت بديهيات يقينية، ويظهر ذلك في قوله " في البداية أخذت بالأسباب التي جعلتني أشك في كل الأشياء الأساسية، على الأقل فيما تحصلنا عليه من أساسيات في العلوم ، قبل الشك لا بد من إخفاء الأحكام القبلية..." (هورنروامريسيستاكوت، 2011، ص360).

هذا ما قاده فيما بعد إلى اكتشاف قواعد الطريقة التي أسس من خلالها أهم كتبه على الإطلاق " مقال في المنهج" . و غرضه في ذلك كان تصحيح التفكير، و بناء قواعد متينة لقيادة العقل، و يبدو أن ديكارت قد استعمل الميتافيزيقا في كل ذلك، فقد كانت مفتاحه الذي فتح به فلسفة الحداثة برمتها ، فكان هو أبوها.

لقد أخذت هموم ديكارت أبعادا ميتافيزيقية حينما أعلن شكه، و استمرت معه إلى غاية وضع أسس منهجه في قيادة العقل بخطواته، الأمر لا يتعلق فقط بطبيعة الكائنات و الكينونات الميتافيزيقية فحسب، بل في العالم الميتافيزيقي ككل، باعتبار أن عالم الميتافيزيقا يتجاوز العالم الطبيعي في كماله، و لذلك فكل تفكير بشكل بديهي سينهل من ذلك العالم الذي يخفي الحقائق الكامنة و الكاملة.

## التمييز بين الفكر الصوفي والمنظور العلمي

الميتافيزيقا ليست بعيدة عن الإنسان، بل هي شديدة الإحاطة به، وهو شديد الغرق فيها، لأن الميتافيزيقا تعنى في الأساس بالبحث عن أصل الإنسان و حقيقة وجوده، و الجانب الخفي منه، كمسألة الروح مثلا.

و السؤال الميتافيزيقي سؤال لا يغيب فيه تسليط الضوء على واقع الإنسان، لأن الدراسة الميتافيزيقية تتساءل، بل و تصر على البحث في جوهر الواقع وحقائقه، إضافة إلى كونها تتعامل مع مختلف الجوانب من الخبرة الإنسانية، كما فعل كانط في مجال الأخلاق. و الغرض هو الوصول إلى جواهرها. و لهذا تتخذ الميتافيزيقا من مسألة الجوهر إشكالية ومحورا أساسيا فيها، لا بد من معالجته ليكون مفتاحا للكشف عن الحقيقة التي تختفي وراء ما نعتقد أنه حقيقة.

الغيب الإبستمولوجي أو الفلسفي أو المعرفي، غيب ميتافيزيقي، هو موطن الحقائق المتحجبة، و السطو على تلك الحقائق يحتم علينا أن نسطو على الميتافيزيقا، و هذا الأمر ينفي الإدعاء القائل بضرورة بتر الميتافيزيقا عن الفلسفة، و عن اهتمام الإنسان بشكل عام.

### **5. التفكير الفلسفي تفكير ميتافيزيقي**

لا يوجد تعريف نهائي ومحدد للفلسفة، إلا أنه يمكن تعريفها بأنها التفكير في كل شيء على أساس مبادئ العقل، و إذا كانت الميتافيزيقا هي الأخرى عمل يقوم به إنسان عاقل باحث عن الحقيقة، أو يدعي أنه يمتلك الحقيقة التي يتم تحصيلها بالتأمل والتفكير، فإن الفلسفة هي الأخرى تفكير، و هدفها بلوغ الحقائق العامة، و مادامت الفلسفة تفكيرا في كل شيء تفكيرا واعيا، فإن الميتافيزيقا و مواضيعها هي مواضيع للتفكير الفلسفي. و بذلك فلا يمكن فصل الميتافيزيقا عن الفلسفة، فالفلسفة تستند بقوة عن الميتافيزيقا، كما تستند على المنطق و القيم و نظرية المعرفة، ففصل الميتافيزيقا عن الفلسفة شبيه بفصل الروح عن الجسد، فلا حياة للفلسفة دون

## شرفاوي قويدر، أ.د قيلامين صباح

ميتافيزيقا ، لأنها تكون عرجاء، بسبب بتر الدعامة الميتافيزيقية، إن لم يكن ذلك بترًا للفلسفة في حد ذاتها (الضوي ، 1999، ص36).

تعنى الميتافيزيقا بكثير من إهتمامات الفلسفة، مثل قضايا الجمال و الأخلاق، فمن أهم مؤلفات كانط " أسس ميتافيزيقا الأخلاق". فهو دراسة فلسفية نقدية للأخلاق غلب عليها الجانب الميتافيزيقي، و ذلك من خلال البحث عن مدى حقيقة ما توصل إليه الإنسان في مرحلة أخرى للتفلسف يمكن وصفها بأنها نقد للنقد، على اعتبار أن الذات المتفلسفة عند كانط هي ذات ناقدة، و عمل الفلسفة في كل مرحلة من مراحلها لا يجب أن يخلو من الطابع النقدي، و على هذا الأساس، فإنه يمكن القول بأن الميتافيزيقا عند كانط هي " نقد للنقد" أي نقد للمنتوج الفلسفي الذي قام على نقد منتوج فلسفي آخر، فالميتافيزيقا بوصفها ذات بنية فلسفية تقوم على النقد، هي في الوقت نفسه منتوج فلسفي يخضع لنقد الفلسفة مجدداً.

## 6. الإبيستيمولوجيا تفكير ميتافيزيقي

لم تتراجع الميتافيزيقا في أوج ازدهار العلوم و الفلسفات المعاصرة، بل ازدادت تقدماً ، و توسعت مساحتها بتوسع مجالات العلوم، فظهرت محاولات لبناء الميتافيزيقا بطرق تجريبية علمية، حيث يرى بعض الإبيستيمولوجيين المعاصرين أن هناك علاقة بين الأشياء الفيزيائية و الجانب السيكلولوجي للنفس، معتبرين أن للنفس وجوداً فيزيائياً فضلاً عن حقيقتها المجردة، مهمتها تقديم صورة كلية و حقيقية عن الواقع، تعلق عن صورته المادية، التي تعجز التجربة عن تفسيرها أحياناً.

فإذا كان العلم يميل إلى رصد الظواهر الجزئية المادية، فإن الميتافيزيقا تبحث في كليات جوهرية مجردة عن المادة الحسية، وهذه العلاقة بين العلم و الميتافيزيقا ليست علاقة جديدة، فقديمًا لم يكن الناس يفرقون بين العالم و الميتافيزيقي، كما هي الحال بالنسبة لطاليس مثلاً، الذي كان يعد من أكبر العلماء في عصره، و لكنه طرح السؤال الميتافيزيقي حول مصدر الوجود، و هو في الوقت نفسه سؤال علمي ، يبحث عن البنية

## التمييز بين الفكر الصوفي والمنظور العلمي

الكونية و المادية للعالم، فهو سؤال في المادة و سؤال في الأنطولوجيا، سؤال في العلم و في الميتافيزيقا معا، وهنا يظهر التداخل و التكامل بينهما. فالبداية الفلسفية للفكر البشري كانت وحدة تجمع العلم و الميتافيزيقا معا، بشكل غير منفصل و غير متمايز، بالإضافة إلى أن كلا منهما يهدف إلى الغاية نفسها، وهي الوصول إلى الحقيقة، معتمدين معا على العقل كأداة للتفكير والتمييز.

### 7. قيمة التفكير الميتافيزيقي

إن فكرة الفيض أو الإشراق أو الإلهام لم تتوقف عند الفلاسفة و الروحانيين فقط ، فقد تحدث عنها بعض العلماء الرياضيين و التجريبيين، فمفهم من صرح بأنه قد جاءه نوع من الكشف المفاجئ شبيه بالخبرة الصوفية ، فنيوتن نفسه كان يقول عن طريقته في البحث " إنني لأضع موضوع بحثي أمام عيني ثم أنتظر حتى يشرق الإلهام الأول عليا شيئا فشيئا ليتحول إلى نور جلي " و يصف روجر بنروز الإلهام الرياضي بأنه اقتحام مفاجئ لعالم المثل الأفلاطوني . و يتحدث كورت جودل عن اتصال آخر مباشر بالحقيقة ، استطاع بواسطته إدراك بعض المفاهيم الرياضية مباشرة كاللانهاية مثلا، كما أشار إلى بعض التجارب التأملية مع إغلاق الحواس و التمدد في مكان هادئ.... وهي غير بعيدة عن ممارسات اليوغا في الثقافة الصينية، كما يروي الفارد هويل إن وعي الرياضي استنار و أنا في طريق سفر ، و لم تكن استنارة قليلة، بل كانت كما لو أن فيضا من الضياء الساطع قد سلط عليا فجأة، أما كم من الوقت استغرق كي يقنعني تماما بأن المسألة قد حلت فقد كان أقل من خمس ثواني، و لم يبق عليا سوى التأكد منه، قبل أن يتلاشى الوضوح، كان لدي ما يكفي من الخطوات الأساسية التي خزنت بأمان في ذاكرتي ، و إنه لمؤشر على مقدار اليقين الذي شعرت به، إنني في الأيام اللاحقة لم أتكلف وضع أي شيء على الورق ، و عندما عدت إلى كمبريدج بعد عشرة أيام وجدت أنه من الممكن أن أكتب هذا الشيء و بدون صعوبة (بول ديفيز، 2008، ص 243).

## شرفاوي قويدر، أ.د قيلامين صباح

و هذا ما جعل هويل يعتقد و من خلال أبحاثه في فيزياء الكم أن العالم يوجهه ذكاء أعظم، يزرع في عقل الإنسان أفكارا و آراء من المستقبل يأتي بها جاهزة أو مسبقة الصنع إلى عقل الإنسان، و هذا هو مصدر إلهام الرياضي و الموسيقي معا.

يعد هذا اعترافا صريحا بالعالم الميتافيزيقي و الغيبي، و بالطرق الصوفية الإشرافية في الوصول إليه، و على الرغم من أن العديد من الأفكار الميتافيزيقية و اللاهوتية تبدو صهيانية أو ساذجة فإنها ليست أكثر تفاهة من الاعتقاد بأن العالم موجود على الشكل الذي هو عليه بدون سبب.

فلا يمكن تفسير العالم تفسيرا عقلانيا تاما بمفهوم النظام المغلق، هذا الاتجاه يعد محاولة لبناء نظرية ميتافيزيقية تقلل من بعض عشوائية العالم فائق المنطقية، فنحن أمام حواجز تمنعنا من المعرفة و التفسير النهائي في أقصى درجاتهما. فعلى أن نعتق - للوصول إلى الفهم - طريقا غير طريق التفسير العقلاني، و ربما كان الطريق الصوفي هو الطريق الصحيح لمثل هذا الفهم الذي يقودنا إلى ما وراء الحدود التي يمكن أن يأخذنا إليها العلم و الفلسفة، و هي الطريق الوحيد الذي يمكن الوصول من خلاله إلى الفهم الأقصى.

### 8. من الميتافيزيقا إلى التصوف

يقع التفكير الصوفي في الطرف المقابل تماما للفكر العقلاني الذي هو أساس الطريقة العلمية ، فهناك ميل للخلط بين الصوفية و السحر ، و المعجزات، و الاعتقادات الهامشية الأخرى، حيث أن عددا من مفكري العالم بمن فهم بعض العلماء البارزين مثل أينشتاين، و شرودنجر ، و هيزنبرغ ، و ادنجتون ، و جينز، قد اعتنقوا الصوفية ، ذلك أن العلم أحيانا يعجز عن تفسير المسائل القصوى (النهائية). و التعبير الصوفي يكون عادة من أشخاص متدينين ، أو من أولئك الذين يمارسون التأمل ، فالصوفيون غالبا ما يتحدثون عن شعور مسيطر عليهم باتحادهم مع العالم أو مع الإله، و عن رؤيتهم الخاطفة الكلية للحقيقة، أو عن وجودهم في حضرة

## التمييز بين الفكر الصوفي والمنظور العلمي

تأثير قوي محب، و أنهم يستطيعون امتلاك الحقيقة النهائية في تجربة واحدة، على النقيض من سلسلة الاستنتاج الطويلة المتعرجة التي تميز الطريقة المنطقية العلمية.

إن نيوتن نفسه كان يرى أن النظام الشمسي يبدو أجود تصميمًا من أن يكون ناشئًا عن مجمل قوى عمياء. إن هذا النظام الجميل جدا من الشمس و الكواكب والشهب يمكنه أن يستمر فقط بمشورة كائن عاقل و قوي و تحت سيطرته و ترى هذا الاتجاه لكثير من العلماء فقد ثقل عليهم افتراض أن التنظيم الذكي و المتناغم للطبيعة هو نتاج مصادفة بحتة.

و لقد صاغ روبرت بويل وجهة النظر هذه من خلال قانونه الشهير " إن التصميم الرائع لذلك النظام العظيم للعالم و على الأخص النسيج المدهش لأجسام الحيوانات واستخدامها لحواسها و أجزاء أخرى كان الدافع الكبير الذي حفز الفلاسفة و الشعوب في كل العصور على الاعتراف بوجود إله خالق لهذه البنى الرائعة.

و لقد تكلم أينشتاين عن شعور كوني ديني ألهمه تأملاته حول النظام أو التناغم في الطبيعة، كما يعتقد بعض الفيزيائيين أن البصائر الوجدانية المنتظمة التي تتحقق عن طريق الممارسات التأملية الهادئة يجب أن تكون مرشدا نافعا في صياغة النظريات العلمية. فالتجارب الصوفية تبدو أكثر مباشرة و إحياء، فالتبيعة بما تبديه من تناسق و تناغم تفرض علينا الإعجاب و الإحترام و تملي علينا شعورا ملحا بالتقرب منها. إننا نحس أننا نلمس شيئا عاما و ربما خالدا، بحيث تتخذ هذه اللحظة الخاصة في الزمن طبيعة مقدسة تفجر فينا تلك الطاقة البركانية المكبوتة و الجاهزة للانطلاق، و يبدو أن هذه اللحظة تتوسع مع الزمن بدون حدود ، بحيث نشعر أن كل الحدود بيننا و بين العالم الخارجي تختفي، لأن ما نختبره يقع وراء كل أنواع و كل محاولات التقاطها في تفكير منطقي.

إن انفتاح الفيزياء الحديثة قد يساعد إلى حد ما في التوفيق بين التقاليد القديمة والاتجاهات الحديثة في الفكر ، وعلى سبيل المثال فإن ما قامت به اليابان من إسهام

## شرفاوي قويدر، أ.د قيلامين صباح

علمي كبير في مجال الفيزياء النظرية منذ الحرب العالمية الثانية ، قد يعتبر دليلا على وجود علاقة ما بين الأفكار الفلسفية في تقاليد الشرق الأقصى و بين الجوهر الفلسفي لنظرية الكم، و قد يكون من الأبسط أن نكيف أنفسنا مع مفهوم الواقع الكماتي النظري، إذا لم نتخذ طريقة التفكير المادية الساذجة التي كانت تعم أوروبا في العقود الأولى من القرن العشرين، و بتعبير بول ديفيز " ثمة حقيقة رأيت فيها ما يثير ، فبينما يدعي معظم العلماء أنهم يتحاشون الدين، إلا أنه يسيطر فعلا على تفكيرهم أكثر مما يسيطر على تفكير رجال الدين " (بول ديفيز، 2008، ص262).

و يميل الصوفيون الغربيون إلى التأكيد على حضور الذات و يصفون أنفسهم غالبا على أنهم برفقة كائن ما، هو عادة الله، الذي يختلف عنهم فعلا ، و لكنهم يشعرون بروابط عميقة تشدهم إليه. و يعيدنا هذا إلى التراث الصوفي القديم في الكنيسة المسيحية ، و الديانات الغربية ، و الشرقية العربية الإسلامية. و تمتد جذور الفكر الصوفي إلى الشرق القديم الذي يتميز فكره بالتركيز على وحدة الوجود و الحضور الإلهي.

في الفكر الصوفي يتم إدراك الحقيقة مباشرة و فورا بدون أية واسطة أو أية رموز معقدة ، أو أي تجريد أو تصور ، فالذات و الموضوع يصيران واحدا، في عمل لا زمني و لا مكاني ، يقع خلف كل أشكال الوساطة. إن فحوى التجربة الصوفية هو نوع من الطريق المختصر للحقيقة، و هو اتصال مباشر و بلا واسطة مع حقيقة مدركة نهائية.

فالتعاليم الصوفية تدور حول فكرة جوهرية هي أن الواقع واحد، و لقد دعي هذا الواحد بأشكال مختلفة ، مثل الخير،الإله،الكون،العقل،الفراغ،أو المطلق، و هذا المطلق هو ما يعجز العلم عن الوصول إليه مباشرة..... و المعرفة الصوفية في نهاية المطاف ،إما أن يحصل عليها المرء كلها دفعة واحدة أو لا يحصل عليها أبدا،فليس هناك طريق متدرج أو مراحل و وسائل.

## التمييز بين الفكر الصوفي والمنظور العلمي

تبدو الأشياء والأحداث في الواقع الحسي منفصلة و مستقلة بعضها عن بعض ، لكنها في الحقيقة تضرب بجذور مشتركة في عمق الوجود، وهذا غالبا ما نشهه بالنباتات البحرية الطافية على سطح البحر ، فقد تبدو منفصلة أيضا و مستقلة عن بعضها البعض ، لكننا إذا تتبعنا مساراتها نجد أنها تلتقي بجذور مشتركة في أعماق البحر. بالمقابل فإن الوعي مستويات متعددة أيضا ، بتعدد حالاته المتغيرة ، و الحقيقة أن الحالة المتغيرة للوعي تستطيع النفاذ إلى تلك الأعماق أو المستويات . و بلغة فيزياء الكم فإن للواقع مستوى دون كمي تترابط فيه الأحداث و الأشياء.

كان ذلك الترابط و الوحدة العميقة موضوعا للعديد من الأديان و الفلسفات العرفانية حيث يشعر إنسان تلك الأديان بهذه الوحدة شعورا حدسيا، و بتأثير فيزياء نيوتن التي اقتصرت على وصف المظهر المباشر للواقع الذي تبدو فيه الأشياء مستقلة، فقد ذلك الحدس مكانته في أذهان العديد من الناس . لكن العلم استطاع مؤخرا النفاذ إلى تلك الوحدة ، فقد تمكنت نظريتنا النسبية و الكم من النفاذ إلى عمق الواقع ، بتتبع مسار الأحداث من مظهرها المباشر إلى أصولها و جذورها، فاكتشفت الوحدة المشتركة للأشياء و الأحداث جميعا بطريقة علمية.

## **9. العقل الصوفي**

يعد العقل تعبيرا عن الطاقة الداخلية الكامنة في عمق الكيان الإنساني، هو إفصاح عن الروح أو الوعي المكنون الذي أصبح يعرف في علم النفس باللاوعي، و يتخذ العقل من الدماغ أو الحواس سبيلا للتعبير، أي قناة للإتصال بالعالم الخارجي، ويتجلى العقل الإنساني في مستويات ثلاثة : المستوى الأول هو الفعل المرتبط بالواقع الإجتماعي و المشروط بالانفعالات و التقاليد و العقائد و الأعراف التي تقيده و تلقي به في متاهة الضياع و التشتت و تخضعه لانفعالية الأنا ، المستوى الثاني :هو العقل المرتبط بالدماغ، العقل المنطقي، الصوري و الرياضي،العقل الذي يتأس العالم المادي،يدرسه،يصفه،و يرتبه في سلسلة صاعدة متماسكة ، تبلغ مثالية العقل والروح ،

## شرفاوي قويدر، أ.د قيلامين صباح

و إذ يبلغ العقل أعلى درجات المحاكمة المنطقية و العلمية والمعرفية يظل على الحقيقة، المستوى الثالث: هو العقل الفوقي الذي يستغرق في الحقيقية السامية، و يعاين الوعي الكوني ليتحد به.

فالمستوى الأول هو العقل المشروط بالأناية الفردية، و بالانفعال و ضيق الأفق و التقليد الجمعي، و هو لا يشير من قريب أو بعيد إلى الصوفية أو الحكمة. أما العقل المرتبط بالدماغ فهو يتدرج من خلال المنطق الصاعد في درجات سلم الوجود، و من خلال المعرفة التي تنتقل على نحو متصل من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى لتبلغ الرؤية الصوفية - الحكمة - وصولاً إلى القمة المطلقة على الأجواء العليا اللامتناهية، و على المبادئ الأدنى التي تقع دونه. و هو ميزة العلماء النظريين و الإنسانيين و الفلاسفة و الرسامين الكبار و الموسيقيين الأفذاذ، فهم صوفيون حكماء، أما المستوى الثالث فهو العقل الفوقي المتصل بالروح، هو الغاية القصوى للصوفية، فالحكمة تعانق الحقيقة السامية و الوعي الكوني، و تتحد بهما. (ندرة اليازجي، 1998، ص 264)

## 10. العقل البوذي

إن كلا من الضلال و التنوير ينبعان من العقل، و كل وجود أو ظاهرة تنشأ من فعالية العقل، كما تظهر الأشياء المختلفة من كيس الحاوي، إن أنشطة العقل ليس لها حدود، و هي تشمل جميع الموجودات في الحياة، لذا فإن العقل الدنس يحيط نفسه بأشياء دنسة، و العقل النقي يحيط نفسه بأشياء نقية، و ليس للمحيط حدود تتجاوز أنشطة العقل.

و كالصور التي يرسمها الفنان فإن المحيط يخلقه نشاط العقل، بينما المحيط الذي يخلقه بوذا نقي و خال من الدنس، بعكس ما يخلقه المرء، بحيث يكون دنسا، إن العقل يستحضر أشكالاً متعددة كمثل الفنان الماهر الذي يرسم صوراً لمختلف العوالم، و لا يوجد شيء في العالم خارج إطار الإبداع الفني العقلي، إن بوذا يشبه عقولنا، والوجود الواعي مثل بوذا، و لذلك لا يوجد اختلاف بين العقل و بوذا، و بين

## التمييز بين الفكر الصوفي والمنظور العلمي

الوجود الواعي، في القدرة على خلق جميع الأشياء، إن بوذا يفهم بشكل صحيح جميع الأشياء التي يبدعها العقل الفاني، و لذلك فإن أولئك الذين يفهمون تلك المقولة قادرون على رؤية و مشاهدة بوذا الحقيقي.(دينو كيوكا، 2009، ص67)

### 11. خاتمة

لقد أدى هذا البحث بين العلم و الفلسفة ، وبين الواقع و ما وراء الواقع أو الميتافيزيقا ، و بين عالم الإنسان الخارجي و كيانه الداخلي الروحي و النفسي ، أدى إلى محاولة رأب الصدع في حياة الإنسان شتتته الفيزياء الكلاسيكية بنظرتها التجزيئية ، كما أدى التزاوج بين التجربة العلمية و الخبرة الصوفية الذي بعثته الفيزياء المعاصرة، فيزياء الكم و النسبية ، بنظرتها الشمولية إلى إحياء العالم الروحي في الإنسان ، وتطور الحياة النفسية ، من خلال اكتشاف علم النفس الحديث ، وعلم ما وراء النفس أو الباراسيكولوجي .

### 12. قائمة المراجع:

- إمام عبد الفتاح، إمام. (2005). *مدخل إلى الميتافيزيقا*. القاهرة: شركة نهضة مصر.
- بوكيو، دينو كيوكا. (2009). *تعاليم بوذا* (ط2). (رعد عبد الجليل جواد، المترجمون). سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- بول، ديفيز. (2008). *الله و العقل و الكون* (ط6). (سعد الدين خرفان، وائل بشير الأتاسي، المترجمون). دمشق: دار علاء الدين للنشر و التوزيع و الترجمة.
- كريس، هورنروإمريسيستاكوت. (2011). *التفكير فلسفيا*. (ليلى الطويل، المترجمون) سوريا: الهيئة العامة السورية للكتاب.
- محمد توفيق، الضوي. (1999). *دراسات في الميتافيزيقا*. مصر: دار الثقافة العلمية.
- ندرة، اليازجي. (1998). *الأعمال الكاملة* (ط1). دمشق: منشورات دار علاء الدين